السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

الْحَلْقَةُ ٢٠

فَتْحُ مَكَّةَ (١)

الْعَهْدُ الْمَنْقُوضُ، وَكِتَابُ حَاطِبٍ، وَنِيرَانُ مَرِّ الظَّهْرَانِ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ



Hj Che Alim Hj Che Haron
AK (Kelantan)
quranscience.my

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ Hj Che Alim Hj Che Haron AK (Kelantan) • @QuranScienceMY • quranscience.my
هذا الكتاب الإلكتروني مجاني للمسلمين — يمنع بيعه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

الْحَلْقَةُ ٢٠

فَتْحُ مَكَّةَ (الْجُزْءُ الْأَوَّلُ)

الْعَهْدُ الْمَنْقُوضُ، وَكِتَابُ حَاطِبٍ، وَنِيرَانُ مَرِّ الظَّهْرَانِ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ

سورة النصر (١١٠): ١

HJ CHE ALIM HJ CHE HARON

quranscience.my | @QuranScienceMY

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ quranscience.my — كتاب إلكتروني مجاني. يُمنع بيعه.

شكر وإهداء

الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وفتح مكّة بغير سفكٍ كبيرٍ للدماء. والصلاة والسلام على سيّدنا ونبيّنا محمد ﷺ، الذي دخل بلده الذي وُلد فيه مطأطئ الرأس تواضعًا لله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أُهدي هذا الكتاب خاصّةً إلى زوجتي الحبيبة،

زهرة محمد لطيف؛

وإلى أبنائي وبناتي الأحبّة،

محمد حافظ، نور هزواني، عبد الحكيم، نور هداية، نور عاقلة ونور عتيقة؛

وإلى أصهاري وكنّاتي،

فضيلة، مالك، حنين، فيريزال وفيروان.

هذه الحلقة العشرون من «السيرة النبوية» هي الجزء الأوّل من قصّة فتح مكّة: العهد الذي نقضه حلفاء قريش، وكتاب حاطب بن أبي بلتعة، وعشرة آلاف مقاتل خرجوا في شهر رمضان، والنيران التي أُوقدت في مرّ الظهران. أسأل الله أن يجعل هذا العلم عِلْمًا يُنْتَفَعُ بِهِ.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

عن غلاف هذا الكتاب

لا يصوّر غلافُ هذا الكتاب أيَّ إنسانٍ أو حيوان، بل يعرض **واديًا صحراويًّا فسيحًا في الليل**، تحيط به **جبالٌ من الغرانيت الداكن**. وتنتشر في أرض الوادي كلّها **آلافُ النيران الصغيرة** تتوهّج بلونٍ برتقاليّ، تحت **سماءٍ مرصّعة بالنجوم** بدأ **ضوء الفجر** يلوّن أفقها الشرقيّ.

يذكّر هذا الوادي بمرّ الظهران، على أميالٍ من مكّة، حيث عسكر عشرة آلاف من جند الإسلام في الليلة التي سبقت الفتح. وقد خرج أبو سفيان يتحسّس الأخبار، فراعه منظر النيران فقال: «كأنّها نيران عرفة» (صحيح البخاري ٤٢٨٠). ويرمز ضوء الفجر في الأفق إلى يومٍ جديدٍ يوشك أن يطلع — يومٍ يعظّم الله فيه الكعبة.

الشريط الأزرق الداكن في الأسفل، المؤطَّر ب**خطوطٍ ذهبيةٍ رفيعة**، هو موضع اسم المؤلف.

المحتويات

فتح مكّة (الجزء الأوّل) — مقدّمة
١. عامان بعد الحديبية — رسم؛ كتب السيرة
٢. أبو سفيان بين يدي هرقل — صحيح البخاري ٧
٣. خزاعة: الحليف القديم لبني هاشم — كتب السيرة
٤. الهجوم الليليّ عند الوتير — رسم؛ كتب السيرة
٥. العهد المنقوض — التوبة ٩: ١٢–١٣؛ صحيح البخاري ٣١٨٨
٦. استغاثة عمرو بن سالم — كتب السيرة
٧. أبو سفيان في المدينة — كتب السيرة
٨. أمّ حبيبة: الزوجة القادمة من الحبشة — صحيح مسلم ٧٢٨؛ كتب السيرة
٩. الوفاء بالعهد وجزاء الغدر — النحل ١٦: ٩١؛ الأنفال ٨: ٥٨
١٠. الاستعداد في كتمان — صحيح البخاري ٣٠٣٠؛ كتب السيرة
١١. آداب الحرب عند رسول الله ﷺ — البقرة ٢: ١٩٠؛ صحيح مسلم ١٧٣١
١٢. الكتاب في العِقاص — صحيح البخاري ٤٢٧٤
١٣. من حاطب بن أبي بلتعة؟ — كتب السيرة؛ الحلقة ١٧
١٤. سورة الممتحنة — الممتحنة ٦٠: ١، ٦٠: ٨
١٥. أهل بدر وباب المغفرة — صحيح مسلم ٢٤٩٥
١٦. عشرة آلاف في شهر رمضان — صحيح البخاري ٤٢٧٦؛ رسم
١٧. الصوم في السفر — صحيح مسلم ١١١٤؛ البقرة ٢: ١٨٥
١٨. «من شاء صام» — صحيح البخاري ٤٢٧٩
١٩. رمضان: شهر الانتصارات — البقرة ٢: ١٨٥
٢٠. العودة إلى المَعاد — القصص ٢٨: ٨٥؛ صحيح البخاري ٤٧٧٣
٢١. دعاء إبراهيم للحرم — إبراهيم ١٤: ٣٥، ١٤: ٣٧؛ آل عمران ٣: ٩٦
٢٢. هجرة العبّاس — كتب السيرة
٢٣. قربان طالما آذيا — يوسف ١٢: ٩٢؛ كتب السيرة
٢٤. النيران في مرّ الظهران — صحيح البخاري ٤٢٨٠؛ رسم
٢٥. إسلام أبي سفيان — صحيح البخاري ٤٢٨٠؛ كتب السيرة
٢٦. حكيم بن حزام: معروفٌ لا يضيع — صحيح البخاري ١٤٣٦، ١٤٧٢
٢٧. كتيبةٌ بعد كتيبة — صحيح البخاري ٤٢٨٠
٢٨. «يوم يعظّم الله فيه الكعبة» — صحيح البخاري ٤٢٨٠؛ كتب السيرة
٢٩. سعد بن عبادة: سيّد الأنصار — صحيح البخاري ٢٧٥٦؛ كتب السيرة
٣٠. مصادر قصّة الجزء الأوّل — جدول
٣١. قبل الفتح وبعده — الحديد ٥٧: ١٠؛ صحيح مسلم ٢٥٤١
٣٢. أعلام الجزء الأوّل — جدول
٣٣. المواضع من المدينة إلى مرّ الظهران — جدول؛ صحيح البخاري ٤٢٧٥
٣٤. أحكام من الجزء الأوّل — جدول؛ صحيح البخاري ٣٠٠٧
٣٥. الخطّ الزمنيّ للجزء الأوّل — جدول
٣٦. أسئلة شائعة عن فتح مكّة (الجزء الأوّل) — ١٢ سؤالًا
٣٧. العبر والخاتمة
المراجع
الدعم والتبرّع

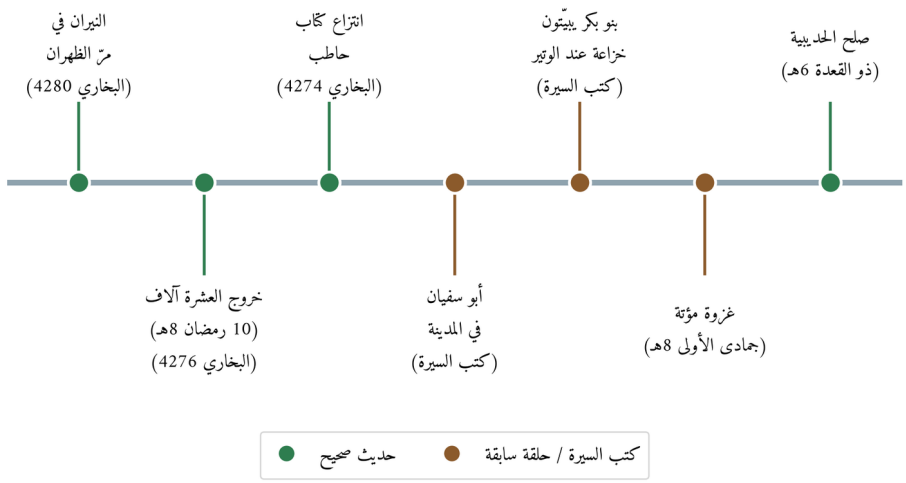
دليل الألوان: الإطار الأخضر = آية من القرآن الكريم؛ الإطار الذهبي = حديث؛ الإطار البنّي = من كتب السيرة؛ الجدول الأزرق = مقارنة. أسماء الرواة المسطّرة بالأزرق روابط إلى صفحاتهم في موقع sunnah.com.

فتح مكّة (الجزء الأوّل)

روت الحلقة الخامسة عشرة من «السيرة النبوية» **صلح الحديبية** — هدنةً مدّتها عشر سنين بين المسلمين وقريش. وقد سمّاه الله «**فتحًا مبينًا**» (الفتح ٤٨: ١). وبعد عامين ظهرت حكمة هذه التسمية: فقد نقضت قريشٌ نفسها العهد، فانفتحت أبواب مكّة على مصاريعها.

إنّ قصّة **فتح مكّة** أعظم من أن يحويها كتابٌ واحد. وهذه الحلقة العشرون هي **الجزء الأوّل**: كيف نُقض العهد، وكيف جهّز رسول الله ﷺ الجيش في كتمان، وقصّة كتاب حاطب بن أبي بلتعة، ومسير عشرة آلاف مقاتل في رمضان، والليلة التي أسلم فيها أبو سفيان في مرّ الظهران. أمّا **الجزء الثاني** (الحلقة ٢١) فيروي يوم الفتح نفسه.

الخطّ الزمنيّ إلى فتح مكّة



تاريخ الخروج (10 رمضان) من كتب السيرة؛ وكونه في رمضان صحيحٌ في صحيح البخاري 4275–4276.

الرسم ١: الخطّ الزمنيّ إلى فتح مكّة.

تنبيه: درجة كلّ حديث مذكورة في صندوق الحديث. أمّا أخبار كتب السيرة — كتفاصيل الهجوم عند الوتير، وشعر عمرو بن سالم، وحديث أبي سفيان في المدينة — فقد وُضعت في الصندوق البنّي «من كتب السيرة»، لأنّ أكثرها مرويٌّ بغير إسنادٍ متّصل.

عامان بعد الحديبية

كان لصلح الحديبية شروطٌ عدّة، ومن أهمّها – وإن بدا صغيرًا يومئذٍ – حرّيّة القبائل العربيّة في أن **تحالف** أيّ الفريقين شاءت، فالقبيلة التي تحالف فريقًا تُعدّ منه في العهد.

من كتب السيرة: شرط الأحلاف في صلح الحديبية

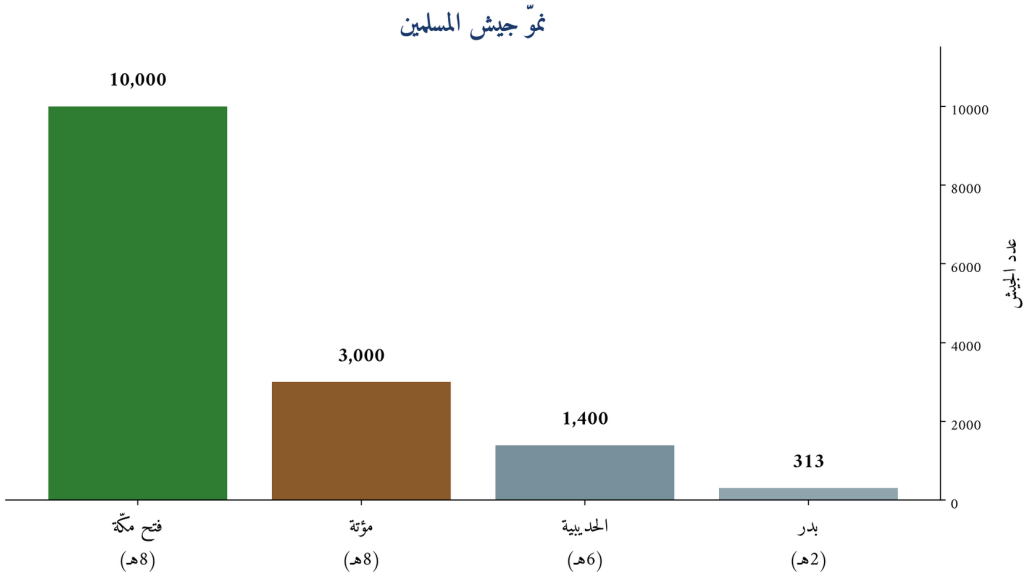
روى ابن إسحاق أنّ ممّا جاء في الصلح: «**مَن أحبّ أن يدخل في عقد محمّدٍ وعهده دخل فيه، ومَن أحبّ أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدهم دخل فيه**». فدخلت **خزاعة** في عقد رسول الله ﷺ، ودخلت **بنو بكر** في عقد قريش.

لفظ هذا الشرط **من رواية كتب السيرة**؛ أمّا الأحاديث الصحيحة في الحديبية (ومنها صحيح البخاري ٢٧٣١) ففصّلت شروطًا أخرى كالهدنة وردّ مَن جاء من مكّة.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

وقرابة عامين حمل هذا الصلح **أمنًا** لم يعهده الناس من قبل؛ فتردّد الناس، وتحادثوا، وسمعوا القرآن بلا خوف. قال الإمام الزهري: لم يكن في الإسلام فتحٌ قبل الحديبية أعظم منه، فقد دخل في الإسلام في تلك السنتين مثلُ مَن كان فيه قبل ذلك أو أكثر. والدليل: **ألفٌ** وأربعمائة يوم الحديبية، **وعشرة آلاف** يوم فتح مكّة.



بدر: البخاري 3957–3959؛ الحديبية: البخاري 4154 (1400)؛ مؤتة: كتب السيرة؛ فتح مكّة: البخاري 4276.

الرسم ٢: نموّ جيش المسلمين من بدر إلى فتح مكّة.

يبيّن الرسم أنّ القوّة الحقيقيّة للمسلمين لم تأتِ من السلاح، بل من **دعوةٍ انتشرت في جوٍّ آمن.** فإذا سمع الناس القرآن بلا ضغط، انجذب كثيرٌ منهم إلى حقّه. وتلك حكمة قبول رسول الله ﷺ شروطَ الحديبية التي بدت جائرة: فالأمن يفتح طريقًا لا يفتحه السيف.

أبو سفيان بين يدي هرقل

في مدّة هدنة الحديبية خرج أبو سفيان بن حرب في تجارةٍ إلى الشام مع ركبٍ من قريش، فوقعت هناك حادثةٌ رواها الإمام البخاري في أوائل صحيحه: دُعي أبو سفيان إلى **هرقل** ملك الروم بإيلياء (بيت المقدس) ليُسأل عن النبيّ الذي ظهر في أرض العرب (صحيح البخاري ٧). وقد فُصّلت قصّة كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل في الحلقة السابعة عشرة.

سأل هرقل أسئلةً: عن نسبه، وأتباعه، أيزيدون أم ينقصون، وهل كان يكذب. ثمّ سأل: «**فهل يغدر؟**» فقال أبو سفيان: «**لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعلٌ فيها**». واعترف أبو سفيان بأنّه لم تمكنّه كلمةٌ يُدخل فيها شيئًا غير هذه.

فتأمّل مفارقة التاريخ: حاول أبو سفيان أن يثير الشكّ في أنّ رسول الله ﷺ **قد** يغدر بالعهد، غير أنّ الذي غدر في النهاية لم يكن رسول الله ﷺ — بل **حلفاء قريش أنفسهم** بعونٍ من سادة قريش. وقد خلص هرقل إلى قوله: «**وكذلك الرسل لا تغدر**».

وقال هرقل أيضًا: «**فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميّ هاتين**». فخرج أبو سفيان من القصر يقول إنّ أمر محمّد قد عظُم حتّى يخافه ملك بني الأصفر. وقال في الرواية نفسها: «**فما زلتُ موقنًا أنّه سيظهر حتّى أدخل الله عليّ الإسلام**».

كانت تلك الكلمة الأخيرة **إشارةً مبكّرة** إلى ما سيرويه هذا الكتاب. فبذرة اليقين غُرست في قلب أبي سفيان في قصر هرقل، ثمّ أنبتت في ليلةٍ بمرّ الظهران حين رأى آلاف النيران لجيش الإسلام. والعبرة: **الحقّ الذي يُسمع اليوم** قد يُثمر بعد سنين، وواجبنا أن نبلّغه بصدق.

خزاعة: الحليف القديم لبني هاشم

لماذا اختارت خزاعة رسولَ الله ﷺ؟ إنّ صلتها ببني هاشم أقدم من الإسلام؛ فقد حكمت خزاعة مكّة قبل قريش، وكان لها حلفٌ مع جدّ رسول الله ﷺ، **عبد المطّلب**.

من كتب السيرة: الحلف القديم بين خزاعة وعبد المطّلب

يذكر أهل الأخبار أنّ عبد المطّلب استنصر خزاعة حين نازعه أعمامه، فانعقد بينهم حلف. وكان بعض خزاعة قد أسلموا مبكّرًا، وعُرفت القبيلة بأنّها **عَيبة نُصح** رسول الله ﷺ بتهامة — مسلمُهم وكافرهم يميلون إليه.

هذه المعلومات من **كتب السيرة**. وفي الحديث الصحيح يظهر بُدَيل بن ورقاء الخزاعيّ يوم الحديبية ناقلًا خبر قريش إلى رسول الله ﷺ) صحيح البخاري ٢٧٣١)، ممّا يدلّ على حسن صلة خزاعة به.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن سعد، الطبقات الكبرى.

وفي المقابل كانت بين **بني بكر** — ولا سيّما بني الدِّيل — وبين خزاعة عداوةٌ قديمة ودماءٌ لم تُثأر منذ الجاهليّة. فكبحت هدنةُ الحديبية ذلك الثأر حينًا، لكنّ الجمر الذي لا يُطفأ قد يشتعل في أيّ وقت.

والعبرة: **الوفاء والمعروف القديم لا يضيعان**؛ فالصلة الطيّبة التي بناها عبد المطّلب أثمرت بعد عشرات السنين حليفًا وفيًّا لحفيده.

الهجوم الليليّ عند الوتير

في شهر شعبان من السنة الثامنة للهجرة وقع الحدث الذي غيّر كلّ شيء، عند ماءٍ لخزاعة قرب مكّة يُعرف بـ**الوَتير**.

من كتب السيرة: الهجوم عند الوتير

روى ابن إسحاق أنّ **نوفل بن معاوية الدِّيليّ** بيّت خزاعة ليلًا عند الوتير في جماعةٍ من بني بكر فقتلوا منهم رجالًا، **وأعانت قريشٌ بني بكر بالسلاح**، وقاتل معهم من قريش مَن قاتل مستخفيًا في الظلام. فانحازت خزاعة إلى الحرم، فقال بعض بني بكر: «إنّا قد دخلنا الحرم!»، فأجابهم نوفل بكلامٍ فيه استخفافٌ بحرمة الحرم.

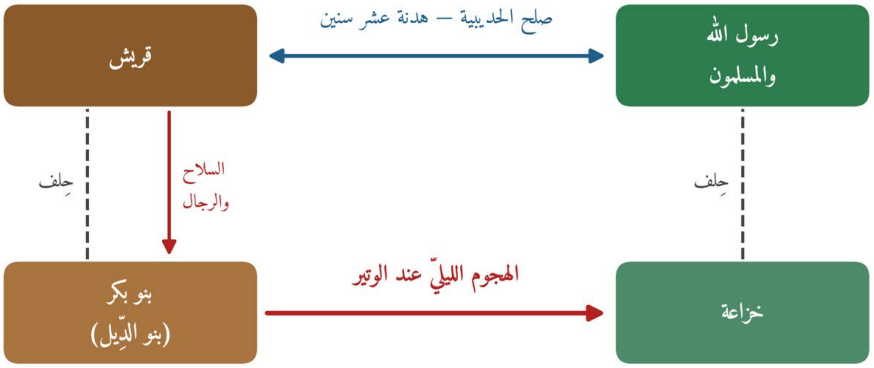
هذه التفاصيل **من رواية كتب السيرة**. والمتّفق عليه عند أهل السير: أنّ حليف قريش اعتدى على حليف رسول الله ﷺ بعونٍ من قريش، فانتقض بذلك صلح الحديبية **من جهة قريش**.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

الواقدي، المغازي.

كيف انتقض صلح الحديبية



تفاصيل الهجوم وإعانة قريش بحسب كتب السيرة (ابن إسحاق).

الرسم ٣: كيف انتقض صلح الحديبية.

لاحظ أنّ الذي بدأ بالغدر هو **قريش** لا المسلمون. فقرابة عامين وفّى رسول الله ﷺ بكلّ شرط — حتّى الشروط المُرّة، كردّ أبي جندل وأبي بصير (الحلقة ١٥). وها هو العهد يُمزَّق بأيدي قريش أنفسهم.

العهد المنقوض

ذكر القرآن حكم القوم الذين ينقضون العهد: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ (التوبة ٩: ١٢) — تفسير ابن كثير ٩: ١٢.

والآية التي تليها كأنّها تصف قريشًا وصفًا دقيقًا: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (التوبة ٩: ١٣) — تفسير ابن كثير ٩: ١٣.

ذكر ابن كثير أنّ بعض العلماء ربطوا هذه الآية بنقض قريشٍ العهدَ حين أعانوا بني بكر على خزاعة حليفِ رسول الله ﷺ. وفيها ثلاث صفات: نكث الأيمان، والهمّ بإخراج الرسول، والبدء بالعدوان — وقد اجتمعت كلّها في قريش.

والغدر في الإسلام **كبيرةٌ من الكبائر**، يُفضح صاحبه على رؤوس الخلائق يوم القيامة:

حديث — صحيح البخاري، رقم ٣١٨٨

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُنْصَبُ لِغَدْرَتِهِ.

السند رواه الإمام البخاري: عن سليمان بن حرب، عن حمّاد بن زيد، عن أيّوب السختياني، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر، حديث رقم ٣١٨٨؛ وأخرجه مسلم برقم ١٧٣٥.

الدرجة: صحيح — أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3188

دروسٌ من هذا الحديث

كانت العرب تنصب الراية في السوق للإعلام بأمرٍ ما، ويصوّر الحديث الغادرَ يُشَهَّر بجرمه **على رؤوس الخلائق.** وقد بيّن العلماء أنّ تحريم الغدر يشمل العهود مع غير المسلمين أيضًا — ولذلك لم يبدأ رسول الله ﷺ قريشًا بغدرٍ قطّ، مع أنّهم أعداؤه.

استغاثة عمرو بن سالم

بلغ خبر الهجوم المدينة سريعًا، ولم تتأخّر خزاعة في طلب النصرة من حليفها.

من كتب السيرة: «يا ربِّ إنّي ناشدٌ محمّدًا...»

روى ابن إسحاق أنّ **عمرو بن سالم الخزاعيّ** ركب إلى المدينة حتّى وقف على رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد، فأنشده شعرًا طويلًا، أوّله: «**يا ربِّ إنّي ناشدٌ محمّدًا ... حِلفَ أبينا وأبيه الأتلدا ... إنّ قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكّدا ... هم بيّتونا بالوتير هُجَّدًا ... وقتلونا رُكَّعًا وسُجَّدًا**».

فقال رسول الله ﷺ: «**نُصِرتَ يا عمرو بن سالم**». ثمّ عرضت سحابةٌ من السماء فقال: «إنّ هذه السحابة لتستهلّ بنصر بني كعب».

هذه الرواية **مشهورة في كتب السيرة**، وقد تكلّم أهل الحديث في إسنادها؛ وحسّن بعض العلماء بعض طرقها بشواهدها.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

البيهقي، دلائل النبوّة.

عبارة «**وقتلونا رُكّعًا وسُجّدًا**» تدلّ على أنّ بعض القتلى كانوا **مسلمين**، فلم يكن الهجوم نقضًا للعهد فحسب، بل عدوانًا على دماء المسلمين أيضًا.

وبعد عمرو جاء **بُدَيل بن ورقاء** في نفرٍ من خزاعة، فأخبروا رسول الله ﷺ بما أصابهم وبمظاهرة قريشٍ بني بكر عليهم، فأصغى إليهم — ومنذ تلك اللحظة كان القرار قد اتُّخذ.

أبو سفيان في المدينة

أدركت قريشٌ خطأها سريعًا، فبعثت سيّدها **أبا سفيان بن حرب** إلى المدينة ليشدّ العقد **ويزيد في المدّة** قبل أن يتحرّك رسول الله ﷺ.

من كتب السيرة: الفراش المطويّ

روى ابن إسحاق أنّ أبا سفيان دخل أوّلًا على ابنته **أمّ حبيبة** رضى الله عنها زوج رسول الله ﷺ، فلمّا ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه. فقال: «يا بنيّة، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبتِ به عنّي؟» فقالت: «**بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجلٌ مشرك**».

ثمّ أتى رسولَ الله ﷺ فلم يردّ عليه شيئًا، ثمّ أتى أبا بكر وعمر وعليًّا وفاطمة رضي الله عنهم يطلب أن يشفعوا له — فأبوا جميعًا. وقال عمر: «والله لو لم أجد إلّا الذرّ لجاهدتكم به». فقام أبو سفيان في المسجد فأجار بين الناس من عند نفسه، ثمّ رجع إلى مكّة صفر اليدين.

هذه القصّة **من رواية كتب السيرة** بغير إسنادٍ متّصل، لكنّها مشهورةٌ جدًّا عند أهل الأخبار.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

تعلّمنا قصّة أمّ حبيبة **الوفاء للعقيدة** فوق رابطة الدم؛ فقد بقيت ابنةً توقّر أباها، لكنّها **لم تُفرّط** في كرامة رسول الله ﷺ من أجله. وبعد أيّامٍ أسلم أبوها نفسه في مرّ الظهران.

أمّ حبيبة: الزوجة القادمة من الحبشة

تعرّفنا قصّة الفراش المطويّ بامرأةٍ عظيمة: **أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان** رضى الله عنها، أمّ المؤمنين. كانت ابنةَ زعيم أعداء الإسلام، لكنّها من **أوائل** مَن أسلم بمكّة.

من كتب السيرة: الزوجة القادمة من الحبشة

هاجرت أمّ حبيبة إلى **الحبشة** مع زوجها عبيد الله بن جحش، فارتدّ هناك عن الإسلام وتنصّر ثمّ مات، وترك أمّ حبيبة وحيدةً مع ابنتها حبيبة في بلدٍ غريب، فثبتت على الإسلام.

ثمّ خطبها رسول الله ﷺ من المدينة، فزوّجها **النجاشيّ** عنه وأمهرها أربعة آلاف درهم، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شُرَحبيل بن حَسَنة. وزواجها وإمهار النجاشيّ مرويٌّ في سنن أبي داود ٢١٠٧ (صحّحه الألبانيّ)؛ أمّا تفاصيل خبر زوجها فمن **رواية كتب السيرة**.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن حجر، الإصابة — ترجمة أمّ حبيبة بنت أبي سفيان.

وكانت أمّ حبيبة **راويةً للحديث**، ومن مرويّاتها حديث السنن الرواتب: «**مَن صلّى اثنتي عشرة ركعةً في يومٍ وليلة بُني له بهنّ بيتٌ في الجنّة**»، ثمّ قالت: «**فما تركتهنّ منذ سمعتهنّ من رسول الله** ﷺ» (صحيح مسلم ٧٢٨).

ولمّا مات أبوها أبو سفيان بعد سنين — مسلمًا — دعت أمّ حبيبة بطيبٍ في اليوم الثالث، وقالت إنّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحلّ لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميّتٍ فوق ثلاث إلّا على زوج (صحيح البخاري ١٢٨٠). فالحبّ للأب باقٍ، لكنّ **الشرع مقدَّم**.

والعبرة: **إيمان المرء لا تحدّده أسرته.** فأمّ حبيبة ابنة زعيم المشركين، وزوجة رجلٍ ارتدّ، ووحيدةٌ في غربة — ومع ذلك أكرمها الله فجعلها **أمًّا للمؤمنين.** واستُجيب دعاؤها لأبيها: فقد أسلم أبو سفيان عام الفتح.

الوفاء بالعهد وجزاء الغدر

قبل الخطو إلى الميدان لا بدّ من فهم **مبدأ الإسلام** في التعامل مع العهود؛ فالإسلام لا يبيح للمسلمين نقض العهد متى شاؤوا، ولو مع العدوّ.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ (النحل ١٦: ٩١) — تفسير ابن كثير ١٦: ٩١.

وإذا خيفت الخيانة من الطرف الآخر علّم الإسلام الوضوح: ﴿**فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ**﴾ (الأنفال ٨: ٥٨) — تفسير ابن كثير ٨: ٥٨.

أمّا في فتح مكّة فالأمر مختلف: فقد **نقضت قريشٌ نفسها** العهد بإعانتها العدوان على حليف رسول الله ﷺ، فانتقض العهد من جهتهم، ولم يعد رسول الله ﷺ ملزمًا به. وقد بيّن ابن القيّم في زاد المعاد أنّ المعاهد إذا نقض العهد، أو أعان مَن يحارب حلفاءنا، انتقض عهده دون حاجةٍ إلى نبذٍ جديد.

والعبرة: الإسلام دينٌ **يحترم العهود**. فلم يُبنَ فتح مكّة على غدر، بل على **العدل** — وجنت قريشٌ ما زرعته بأيديها.

الاستعداد في كتمان

أخذ رسول الله ﷺ في الجهاز للخروج، لكن **دون أن يُعلم الناس بوجهته**، أراد أن يبلغ مكّة قبل أن تستعدّ قريش، ليُتّقى سفك الدماء ما أمكن. وقال:

حديث — صحيح البخاري، رقم ٣٠٣٠

حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الْفَضْلِ، أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرٍو، سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الْحَرْبُ خُدْعَةٌ.

السند رواه الإمام البخاري: عن صدقة بن الفضل، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، حديث رقم ٣٠٣٠؛ وأخرجه مسلم برقم ١٧٣٩.

الدرجة: صحيح — أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3030

دروسٌ من هذا الحديث

«**الحرب خدعة**» معناه أنّ التدبير والكتمان والحيلة في الحرب مباحة — وليس ذلك غدرًا بالعهد. وقد فرّق العلماء بين **الخدعة** (الحيلة المشروعة في الحرب) **والغدر** (نقض العهد) المحرَّم. وكان رسول الله ﷺ إذا أراد غزوةً **ورّى بغيرها** (صحيح البخاري ٢٩٤٧).

من كتب السيرة: دعاء الكتمان

روى ابن إسحاق أنّ رسول الله ﷺ دعا: «**اللهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها في بلادها**». وتذكر كتب السيرة أيضًا أنّه بعث سريّةً صغيرة بقيادة **أبي قتادة** إلى بطن إِضَم، في جهةٍ أخرى، ليظنّ الناس أنّ وجهته غير مكّة.

كلاهما **من رواية كتب السيرة**. والحديث الصحيح الذي يؤيّد المبدأ العامّ هو حديث «الحرب خدعة»، وما كان من تورية النبيّ عن وجهته.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن سعد، الطبقات الكبرى (سريّة أبي قتادة إلى بطن إضم).

آداب الحرب عند رسول الله ﷺ

جهّز رسول الله ﷺ أكبر جيشٍ عرفته العرب يومئذٍ، لكنّه لم يكن جيشًا يفعل ما يشاء؛ بل كان مقيّدًا بـ**آداب الحرب** التي علّمها الله ورسوله. قال تعالى:

﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا**﴾ (البقرة ٢: ١٩٠) — تفسير ابن كثير ٢: ١٩٠.

روى بُرَيدة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ كان إذا أمّر أميرًا على جيشٍ أوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا، ثمّ قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله... اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا**» صحيح مسلم ١٧٣١.).

وروى ابن عمر رضى الله عنهما أنّ امرأةً وُجدت مقتولةً في بعض المغازي، فنهى رسول الله ﷺ **عن قتل النساء والصبيان**) صحيح البخاري ٣٠١٥). لقد قرّر الإسلام حماية المدنيّين في الحرب قبل المواثيق الحديثة بأربعة عشر قرنًا.

بل إنّ بغض العدوّ لا يمنع العدل: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا**﴾ (المائدة ٥: ٨) — تفسير ابن كثير ٥: ٨.

وهذه المبادئ هي التي تفسّر لماذا كان فتح مكّة فتحًا **يكاد يخلو من سفك الدماء**. فلم يكن مقصد رسول الله ﷺ الانتقام من البلد الذي أخرجه، بل **فتح قلوب** أهله للإسلام. فالكتمان، والنيران في مرّ الظهران، وعرض الأمان — كلّها كانت لتجنّب القتال لا لطلبه.

الكتاب في العِقاص

كاد السرّ أن ينكشف — لا على يد عدوّ، بل على يد **صحابيٍّ بدريّ**. فقد كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم فيه بجهاز رسول الله ﷺ، ودفعه إلى امرأةٍ لتحمله إلى مكّة. لكنّ الله أطلع رسوله على ذلك:

حديث — صحيح البخاري، رقم ٤٢٧٤

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ أَخْبَرَنِي الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَافِعٍ، يَقُولُ سَمِعْتُ عَلِيًّا ـ رضى الله عنه ـ يَقُولُ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوا مِنْهَا. قَالَ فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ قُلْنَا لَهَا أَخْرِجِي الْكِتَابَ. قَالَتْ مَا مَعِي كِتَابٌ. فَقُلْنَا لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، قَالَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَا حَاطِبُ مَا هَذَا. قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لاَ تَعْجَلْ عَلَىَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ ـ يَقُولُ كُنْتُ حَلِيفًا وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا ـ وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ، يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ. فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا قَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} إِلَى قَوْلِهِ {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}.

السند رواه الإمام البخاري: عن قتيبة بن سعيد، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن الحسن بن محمّد ابن الحنفيّة، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، حديث رقم ٤٢٧٤؛ وانظر أيضًا ٣٠٠٧ و٣٩٨٣ و٤٨٩٠؛ وأخرجه مسلم برقم ٢٤٩٤.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4274

دروسٌ من هذا الحديث

في الحديث **معجزة**: فقد علم رسول الله ﷺ مكان المرأة وراحلتها والكتاب الذي معها، بلا عيون. وفي روايةٍ قال عليّ: «**ما كذب رسول الله** ﷺ» (صحيح البخاري ٣٩٨٣) – ثقةٌ تامّة بخبره.

وتأمّل أيضًا **عدل رسول الله** ﷺ، لم يعاقب حاطبًا فورًا، بل سأله أوّلًا: «**يا حاطب، ما هذا؟**» فسمع عذره، وقبل صدقه، وردّ اقتراح عمر. فالقائد لا يعاقب قبل أن يفهم.

مَن حاطب بن أبي بلتعة؟

مَن حاطب بن أبي بلتعة رضى الله عنه؟ لم يكن منافقًا، بل صحابيًّا له **سابقةٌ عظيمة** في الإسلام.

من كتب السيرة: ترجمة حاطب

حاطبٌ من لَخْم، وكان **حليفًا لبني أسد بن عبد العُزّى** بمكّة. أسلم قديمًا، وهاجر إلى المدينة، **وشهد بدرًا** والحديبية. وهو **رسول رسول الله ﷺ إلى المقوقس** عظيم مصر (الحلقة ١٧)، الذي رجع بالهدايا ومنها مارية القبطيّة.

وكان أهله وولده بمكّة بلا حامٍ من قرابته، وهذا ما حمله على كتابة الكتاب – **خوفًا على أهله**، لا شكًّا في دينه. وتوفّي بالمدينة سنة ثلاثين للهجرة.

المرجع:

ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة – ترجمة حاطب بن أبي بلتعة.

ويكيبيديا، «حاطب بن أبي بلتعة». https://en.wikipedia.org/wiki/Hatib_ibn_Abi_Balta%27a

تبيّن قصّة حاطب أنّ **الصالح قد يخطئ**، ولا سيّما إذا غلب حبّ الأهل على الرأي. والإسلام لا ينكر ذلك الحبّ، لكنّه يجعله دون حبّ الله ورسوله.

سورة الممتحنة

كانت حادثة حاطب سبب نزول صدر **سورة الممتحنة**، كما في حديث عليّ السابق. وأوّل آياتها:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ (الممتحنة ٦٠: ١) — تفسير ابن كثير ٦٠: ١.

بيّن ابن كثير أنّ الآية نزلت في حاطب، وأنّ الله ناداه مع ذلك بـ«**يا أيّها الذين آمنوا**» — دليلًا على أنّ فعله لم يُخرجه من الإيمان، وإن كان خطأً كبيرًا. وتذكّر الآية بأنّ العدوّ الذي أخرج الرسول والمؤمنين لا يستحقّ أن تُلقى إليه المودّة والأسرار.

غير أنّ السورة نفسها تؤكّد العدل مع غير المسلمين المسالمين: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**﴾ (الممتحنة ٦٠: ٨) — تفسير ابن كثير ٦٠: ٨.

وتعطي الآيتان **توازنًا**: الوفاء للأمّة وعدم إفشاء سرّها للعدوّ المحارب، مع **البرّ والقسط** لكلّ مَن لم يعادِ الإسلام.

أهل بدر وباب المغفرة

رأى عمر رضى الله عنه فعل حاطب خيانةً تستحقّ القتل، لكنّ رسول الله ﷺ نظر إلى **سيرة حاطب كلّها** لا إلى زلّةٍ واحدة. وروى جابر رضى الله عنه حادثةً أخرى تؤكّد منزلة حاطب:

حديث — صحيح مسلم، رقم ٢٤٩٥

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، ح وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رُمْحٍ، أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ عَبْدًا، لِحَاطِبٍ جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَشْكُو حَاطِبًا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَذَبْتَ لاَ يَدْخُلُهَا فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ.

السند رواه الإمام مسلم: عن قتيبة بن سعيد، عن الليث بن سعد؛ وعن محمّد بن رمح، عن الليث بن سعد، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل حاطب بن أبي بلتعة وأهل بدر، حديث رقم ٢٤٩٥.

الدرجة: صحيح — أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:2495

دروسٌ من هذا الحديث

بيّن العلماء أنّ قوله «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» ليس إذنًا بالمعصية، بل **بشارةٌ** بأنّ أهل بدر يُوفَّقون للتوبة ويُغفر لهم. وفي رواية صحيح البخاري ٣٩٨٣ لمّا سمع عمر ذلك **دمعت عيناه** وقال: «الله ورسوله أعلم».

العبرة الكبرى من القصّة: **الحسنات العظيمة قد تغمر الزلّات.** قال الله إنّ الحسنات يذهبن السيّئات (هود ١١: ١١٤). فحريٌّ بنا أن نزن إخواننا **بتاريخ إحسانهم**، لا أن نحكم عليهم بزلّةٍ واحدة.

عشرة آلاف في شهر رمضان

في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة خرج رسول الله ﷺ من المدينة بأعظم جيشٍ رأته جزيرة العرب يومئذٍ:

حديث — صحيح البخاري، رقم ٤٢٧٦

حَدَّثَنِي مَحْمُودٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنِي مَعْمَرٌ، قَالَ أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ فِي رَمَضَانَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ عَشَرَةُ آلاَفٍ، وَذَلِكَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِ سِنِينَ وَنِصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ، فَسَارَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَّةَ، يَصُومُ وَيَصُومُونَ حَتَّى بَلَغَ الْكَدِيدَ ـ وَهْوَ مَاءٌ بَيْنَ عُسْفَانَ وَقُدَيْدٍ ـ أَفْطَرَ وَأَفْطَرُوا. قَالَ الزُّهْرِيُّ وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الآخِرُ فَالآخِرُ.

السند رواه الإمام البخاري: عن محمود بن غيلان، عن عبد الرزّاق، عن معمر بن راشد، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما.

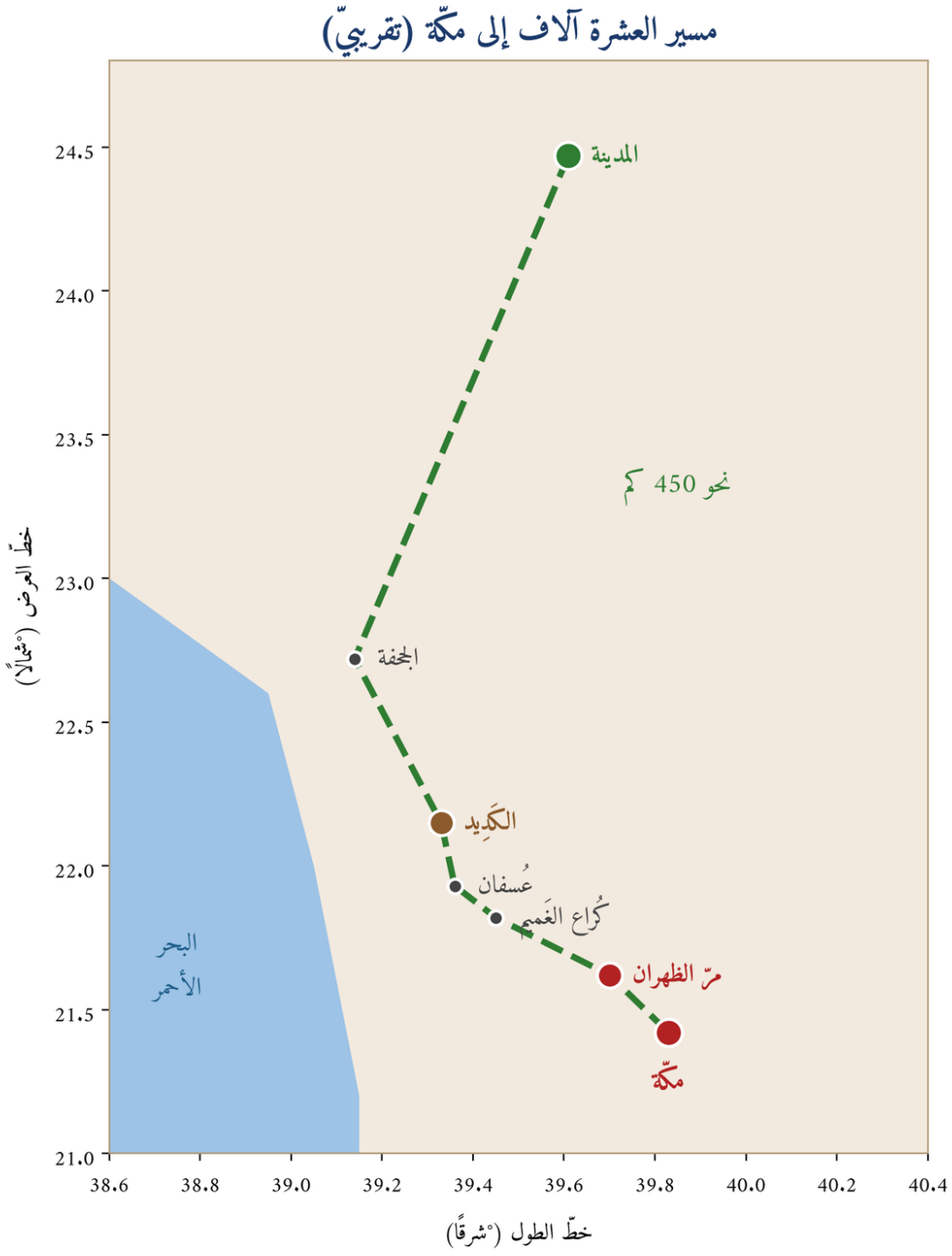
التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح في رمضان، حديث رقم ٤٢٧٦، وانظر أيضًا ٤٢٧٥ و١٩٤٤.

الدرجة: صحيح — أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4276

دروسٌ من هذا الحديث

عشرة آلاف رجل — أكثر من سبعة أضعاف عدد أهل الحديبية قبل عامين. ومع المهاجرين والأنصار خرجت قبائل كـ**مزينة وجهينة وأسلم وغفار وسليم وخزاعة**. وتذكر كتب السيرة أنّه خرج **لعشرٍ مضين من رمضان**، واستخلف على المدينة **أبا رُهم كلثوم بن حصين الغفاريّ**.



القَدِيد وعُسفان وكُراع الغَميم ومرّ الظهران مذكورةٌ في الأحاديث الصحيحة؛ والمواقع تقريبيّة.

الرسم ٤: مسير الجيش ذي العشرة آلاف إلى مكّة (تقريبيّ).

المسافة بين المدينة ومكّة نحو **٤٥٠ كم**. سار الجيش عبر الجحفة وقُدَيد والقَدِيد وعُسفان حتّى **مرّ الظهران** — وادٍ فسيح على نحو ٢٠ كم شمال مكّة، يُعرف اليوم بوادي فاطمة ومنطقة الجموم.

تخيّل سفرًا بهذا الطول بعشرة آلاف رجلٍ وإبلٍ وخيل، في رمضان، تحت شمس الحجاز اللاهبة. لقد تطلّب ذلك **انضباطًا عاليًا** وقيادةً دقيقة — في الماء والزاد وترتيب المعسكر والكتمان. وجرى ذلك كلّه بانتظامٍ حتّى لم تشعر قريشٌ بالجيش إلّا وهو على أبواب مكّة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

الصوم في السفر

وقع المسير في شهر رمضان، فصام رسول الله ﷺ والصحابة أوّل الأمر. ويحدّث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما بما جرى عند كُراع الغَميم:

حديث — صحيح مسلم، رقم ١١١٤

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، - يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الْمَجِيدِ - حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ فَصَامَ النَّاسُ ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ ثُمَّ شَرِبَ فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ فَقَالَ أُولَئِكَ الْعُصَاةُ أُولَئِكَ الْعُصَاةُ.

السند رواه الإمام مسلم: عن محمّد بن المثنّى، عن عبد الوهّاب بن عبد المجيد الثقفيّ، عن جعفر الصادق بن محمّد، عن أبيه محمّد الباقر، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، حديث رقم ١١١٤a.

الدرجة: صحيح — أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1114a

دروسٌ من هذا الحديث

لماذا سمّى الذين استمرّوا صائمين «العصاة»؟ بيّن الإمام النوويّ أنّه كان قد أمرهم بالفطر ليتقوّوا على العدوّ فأبوا إلّا الصيام. ففي الأحوال العاديّة يُخيَّر المسافر، أمّا إذا أمر الإمام بالفطر لمصلحة الحرب فالطاعة أولى.

وأصل هذه الرخصة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ٢: ١٨٥) — تفسير ابن كثير ٢: ١٨٥.

ويدلّ الحديث على أنّ طاعة رسول الله ﷺ مقدَّمة ولو فيما يبدو عبادةً زائدة. فالصيام حسن، لكنّه إذا أمر بالفطر لمصلحةٍ أعظم صار **الفطر هو العبادة**. فالدين لا يُقاس بما نراه أشقّ، بل بما يريده الله ورسوله.

«مَن شاء صام»

ويحدّث ابن عبّاس رضى الله عنهما بالأمر نفسه من زاويةٍ أخرى، ويستخلص حكمه:

حديث — صحيح البخاري، رقم ٤٢٧٩

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ سَافَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ عُسْفَانَ، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَشَرِبَ نَهَارًا، لِيُرِيَهُ النَّاسَ، فَأَفْطَرَ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ. قَالَ وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ صَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي السَّفَرِ وَأَفْطَرَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن علي بن عبد الله المديني، عن جرير بن عبد الحميد، عن منصور بن المعتمر، عن مجاهد بن جبر، عن طاوس بن كيسان، عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح في رمضان، حديث رقم ٤٢٧٩.

الدرجة: صحيح — أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4279

دروسٌ من هذا الحديث

شرب رسول الله ﷺ **على مرأى من الناس** في النهار ليجترئوا على اقتدائه. وهذه قيادةٌ **بالقدوة**: فالقائد لا يكتفي بإباحة الرخصة، بل يُظهرها بنفسه حتّى لا يجد الأتباع حرجًا في الأخذ بها.

وخلاصة ابن عبّاس — «**فمن شاء صام ومن شاء أفطر**» — صارت أصلًا فقهيًّا: يجوز للمسافر الفطر في رمضان ويقضي من أيّامٍ أُخَر. فإن لم يشقّ عليه الصوم فله أن يصوم، وإن شقّ عليه أو أضعفه عن مهمّةٍ مهمّة فالفطر أفضل.

رمضان: شهر الانتصارات

ليس من المصادفة أنّ أعظم نصرين في السيرة وقعا في **رمضان**: **غزوة بدر** في السابع عشر من رمضان سنة اثنتين، و**فتح مكّة** في رمضان سنة ثمان. فالشهر الذي أُنزل فيه القرآن شهرٌ أفاض الله فيه نصره.

البند	بدر وفتح مكّة
الشهر	كلاهما في رمضان
عدد الجيش	٣١٣ رجلًا ← ١٠٬٠٠٠ رجل
الحالة	ضعفٌ وقلّة ← قوّةٌ وكثرة
النتيجة	«يوم الفرقان» ← فتح مكّة
موقف رسول الله ﷺ	دعاءٌ وإلحاح ← تواضعٌ وعفو

يعلّم رمضان **الصبر والتقوى والانضباط**. فجيشٌ يصوم، ويسير تحت الشمس اللاهبة، ثمّ يطيع حين يؤمر بالفطر — ذلك جيشٌ صنعه رمضان. وهو لنا اليوم فرصةٌ لـ«فتح» قلوبنا من أصنام الهوى.

العودة إلى المَعاد

قبل ثماني سنين خرج رسول الله ﷺ من مكّة ليلًا **مطارَدًا**، مختبئًا في غار ثور مع أبي بكر رضى الله عنه (الحلقة ٧). وها هو يعود قائدًا لعشرة آلاف. وقد وعده الله بهذه العودة من قبل:

﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾ (القصص ٢٨: ٨٥) — تفسير ابن كثير ٢٨: ٨٥.

فسّر ابن عبّاس رضى الله عنهما «**المَعاد**» في هذه الآية بـ**مكّة**) صحيح البخاري ٤٧٧٣). وذكر ابن كثير أنّ بعض العلماء قالوا إنّها نزلت في طريق الهجرة حين اشتاق إلى مكّة. وقد تحقّق الوعد بعد ثماني سنين، في رمضان سنة ثمان.

ويتجلّى حبّ رسول الله ﷺ لمكّة في قوله وهو واقفٌ بالحَزْوَرة، سوقٍ بمكّة: «**والله إنّك لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أنّي أُخرجت منك ما خرجت**») جامع الترمذي ٣٩٢٥، وقال الترمذيّ: حسنٌ صحيح).

والعبرة: **وعد الله حقّ** وإن بدا أجله بعيدًا. فمن أُخرج دفاعًا عن الحقّ لم يخسر شيئًا، وسيردّ الله إليه ما يحبّ على وجهٍ أكرم. وحين ردّه الله لم يعد بانتقام، بل بـ**العفو**.

دعاء إبراهيم للحرم

ليست مكّة بلدًا عاديًّا، إنّها البلد الذي قام على **دعاء إبراهيم** عليه السلام، وفيها أوّل بيتٍ وُضع للناس: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾** (آل عمران ٣: ٩٦) — تفسير ابن كثير ٣: ٩٦.

ولمّا ترك إبراهيم زوجه وابنه إسماعيل في ذلك الوادي القفر دعا: **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾** (إبراهيم ١٤: ٣٥) — تفسير ابن كثير ١٤: ٣٥.

فتأمّل مفارقة التاريخ: دعا إبراهيم أن يكون البلد **آمنًا** وأن **يُجنَّب** بنوه عبادة الأصنام. ثمّ بعد قرون صارت الكعبة التي بناها تحيط بها **ثلاثمائةٌ وستّون صنمًا**، وصار من ذرّيّته — قريش — سدنةً لتلك الأصنام. بل دُنّست الأرض التي ينبغي أن تكون آمنة بالعدوان على خزاعة في الحرم.

ودعا إبراهيم أن تكون الكعبة مركز العبادة: **﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** (إبراهيم ١٤: ٣٧) — تفسير ابن كثير ١٤: ٣٧.

ورسول الله ﷺ هو **استجابة دعاء إبراهيم** — وقد قال عن نفسه إنّه دعوة أبيه إبراهيم (رواه أحمد). وفتح مكّة هو اللحظة التي استُجيب فيها ذلك الدعاء تمامًا: طُهّرت الكعبة من الأصنام، وعاد الحرم آمنًا، وأُقيمت الصلاة حول بيت الله. وستُروى تلك القصّة في الحلقة ٢١.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

هجرة العبّاس

وقعت في الطريق لقاءاتٌ مؤثّرة، أوّلها مع عمّ رسول الله ﷺ نفسه، **العبّاس بن عبد المطّلب** رضى الله عنه.

من كتب السيرة: اللقاء بالجحفة

يذكر أهل السير أنّ العبّاس خرج من مكّة بأهله **مهاجرًا** إلى المدينة، فلقي رسول الله ﷺ **بالجحفة** (وفي بعض الروايات بذي الحليفة)، فأمر بإرسال أهله إلى المدينة، وصحب العبّاس الجيش إلى مكّة. فكان بذلك آخر **المهاجرين** قبل الفتح.

ويرى بعض العلماء أنّ العبّاس كان قد أسلم سرًّا منذ زمن، وأقام بمكّة ينقل الأخبار إلى رسول الله ﷺ. وهذا **رأيٌ لأهل الأخبار** فيه نظر، والمقطوع به أنّه أظهر إسلامه قبل الفتح.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن حجر، الإصابة — ترجمة العبّاس بن عبد المطّلب.

كان لحضور العبّاس أهمّيّةٌ كبيرة، لما له من **منزلةٍ رفيعة** في قريش وصداقةٍ قديمة مع أبي سفيان. وعمّا قليل صار هو الجسر بين أبي سفيان ورسول الله ﷺ في مرّ الظهران. والله يضع كلّ قطعةٍ من القصّة في موضعها.

العبرة: **باب الهجرة والتوبة** مفتوحٌ إلى آخر لحظة. فقد جاء العبّاس في اللحظة الأخيرة، ومع ذلك قُبل وأُكرم. وكان رسول الله ﷺ يجلّه، وقال: إنّ عمّ الرجل صِنو أبيه (صحيح مسلم ٩٨٣).

قريبان طالما آذيا

اللقاء الثاني أشدّ تأثيرًا. جاء رجلان من قريش كانا **من أشدّ الناس أذًى** لرسول الله ﷺ ليُسلما: ابن عمّه **أبو سفيان بن الحارث** بن عبد المطّلب، **وعبد الله بن أبي أميّة** أخو أمّ سلمة رضى الله عنها.

من كتب السيرة: عند نِيق العُقاب

روى ابن إسحاق أنّهما لقيا رسول الله ﷺ **بنِيق العُقاب** بين مكّة والمدينة، فأعرض عنهما أوّلًا لشدّة ما كان منهما من أذى – فقد ظلّ أبو سفيان بن الحارث يهجوه بالشعر سنين. فقالت أمّ سلمة: «يا رسول الله، ابن عمّك وابن عمّتك وصهرك!»

ورُوي أنّ عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه قال لأبي سفيان بن الحارث: «ائتِ رسول الله ﷺ من قِبَل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف، فإنّه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسن منه قولًا». ففعل، فأجابه رسول الله ﷺ بجواب يوسف عليه السلام. فأسلما، وصار أبو سفيان بن الحارث بعدُ **ممّن ثبت مع رسول الله ﷺ يوم حنين**.

هذه القصّة **من رواية كتب السيرة**؛ أمّا ثبات أبي سفيان بن الحارث يوم حنين فصحيحٌ في صحيح مسلم ١٧٧٥.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

قول إخوة يوسف: ﴿**تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا**﴾ (يوسف ١٢: ٩١) – تفسير ابن كثير ١٢: ٩١.

وجواب يوسف – الذي ردّده رسول الله ﷺ: ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ (يوسف ١٢: ٩٢) – تفسير ابن كثير ١٢: ٩٢.

وهذه الآية نفسها – «**لا تثريب عليكم اليوم**» – سيردّدها رسول الله ﷺ، على ما في روايات السيرة، لأهل مكّة جميعًا يوم الفتح (الحلقة ٢١). فقد بدأ عفوه بقرابته.

النيران في مرّ الظهران

عسكر جيش الإسلام بمرّ **الظهران** على نحو مسيرة يومٍ من مكّة، وقريشٌ لا تعلم. فأمر رسول الله ﷺ كلّ جماعةٍ أن توقد نارًا، حتّى امتلأ الوادي بـ**آلاف النيران**. ويحدّث عروة بن الزبير بما كان:

حديث — صحيح البخاري، رقم ٤٢٨٠

حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَامَ الْفَتْحِ فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا، خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَقْبَلُوا يَسِيرُونَ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ، فَإِذَا هُمْ بِنِيرَانٍ كَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ مَا هَذِهِ لَكَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ. فَقَالَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ نِيرَانُ بَنِي عَمْرٍو. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ عَمْرٌو أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ. فَرَآهُمْ نَاسٌ مِنْ حَرَسِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَدْرَكُوهُمْ فَأَخَذُوهُمْ، فَأَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ، فَلَمَّا سَارَ قَالَ لِلْعَبَّاسِ احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ الْخَيْلِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ. فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ، فَجَعَلَتِ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ، فَمَرَّتْ كَتِيبَةٌ قَالَ يَا عَبَّاسُ مَنْ هَذِهِ قَالَ هَذِهِ غِفَارُ. قَالَ مَا لِي وَلِغِفَارَ ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ، قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَمَرَّتْ سُلَيْمٌ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا، قَالَ مَنْ هَذِهِ قَالَ هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ مَعَهُ الرَّايَةُ. فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ. ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ، وَهِيَ أَقَلُّ الْكَتَائِبِ، فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابُهُ، وَرَايَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ قَالَ مَا قَالَ. قَالَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ. قَالَ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُرْكَزَ رَايَتُهُ

بِالْحَجُونِ. قَالَ عُرْوَةُ وَأَخْبَرَنِي نَافِعُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ سَمِعْتُ الْعَبَّاسَ يَقُولُ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هَا هُنَا أَمَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ تَرْكُزَ الرَّايَةَ، قَالَ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَئِذٍ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ مِنْ كَدَاءٍ، وَدَخَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ كُدَا، فَقُتِلَ مِنْ خَيْلِ خَالِدٍ يَوْمَئِذٍ رَجُلاَنِ حُبَيْشُ بْنُ الأَشْعَرِ وَكُرْزُ بْنُ جَابِرٍ الْفِهْرِيُّ.

السند رواه الإمام البخاري: عن عبيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة حمّاد بن أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير (مرسلًا)؛ وقال عروة: أخبرني نافع بن جبير بن مطعم، عن العبّاس بن عبد المطّلب رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أين ركز النبيّ ﷺ الراية يوم الفتح، حديث رقم ٤٢٨٠.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4280

دروسٌ من هذا الحديث

شبّه أبو سفيان النيران بـ**نيران عرفة** – نيران الحجيج التي تملأ وادي عرفة في الموسم؛ فذلك هو التشبيه الوحيد الذي تصوّره لبحرٍ من النار بهذا الاتّساع. وكان المقصد **إرهاب** قريش حتّى تستسلم بلا قتال – فتُحقن دماء الفريقين.

وتأمّل قول بُدَيل بن ورقاء: «هذه نيران بني عمرو (خزاعة)». وهو نفسه خزاعيّ – لكنّه لم يعلم أنّ قومه صاروا جزءًا من الجيش ذي العشرة آلاف. لقد نجح كتمان رسول الله ﷺ نجاحًا تامًّا.

إسلام أبي سفيان

يقول حديث البخاري باختصار: «**فأسلم أبو سفيان**». وتفصّل كتب السيرة تلك الليلة الحاسمة.

من كتب السيرة: ليلةٌ في خيمة رسول الله ﷺ

روى ابن إسحاق أنّ العبّاس ركب **البغلة البيضاء** لرسول الله ﷺ نحو مكّة، يرجو أن يلقى أحدًا يُخبر قريشًا ليأتوا فيستأمنوا. فسمع صوت أبي سفيان، فأردفه خلفه إلى خيمة رسول الله ﷺ. فلمّا مرّ بخيمة عمر عرف عمر أبا سفيان فاشتدّ يستأذن في قتله، وأجاره العبّاس.

فقال رسول الله ﷺ للعبّاس: «اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به». فلمّا أصبح قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلّا الله؟**» فقال: «لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنّي شيئًا». ثمّ سأله عن رسالته، فقال إنّ في النفس منها شيئًا. ثمّ بإلحاح العبّاس نطق **بالشهادة**.

تفاصيل هذا الحوار **من رواية كتب السيرة**؛ وإسلام أبي سفيان في مرّ الظهران ثابتٌ في حديث البخاري المذكور.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

تأمّل كرم خُلُق رسول الله ﷺ. فالرجل الذي بين يديه هو **قائد العدوّ** الذي قاد قريشًا في أُحد والخندق سنين، ومع ذلك لم ينتقم منه، بل **دعاه إلى النجاة**. وتذكر كتب السيرة أنّه أكرم أبا سفيان بأنّ مَن دخل داره فهو آمن — وهذا صحيحٌ في صحيح مسلم ١٧٨٠، وسيُفصَّل في الحلقة ٢١.

حكيم بن حزام: معروفٌ لا يضيع

في حديث البخاري عن مرّ الظهران لم يخرج أبو سفيان وحده، بل كان معه **حكيم بن حزام** — ابن أخي أمّ المؤمنين خديجة رضى الله عنها، ومن أوجه سادات قريش. وقد أسلم هو أيضًا عام الفتح.

من كتب السيرة: وُلد في جوف الكعبة

ذكر الإمام مسلم في صحيحه أنّ حكيم بن حزام **وُلد في جوف الكعبة**، وعاش ستّين سنةً في الجاهليّة وستّين في الإسلام. وكان صديقًا لرسول الله ﷺ قبل البعثة، وأهدى غلامًا اسمه زيد بن حارثة إلى عمّته خديجة.

القول بولادته في الكعبة من **كلام الإمام مسلم وأهل الأخبار** لا من قول رسول الله ﷺ؛ وقصّة زيد من رواية كتب السيرة.

المرجع:

صحيح مسلم، كتاب البيوع، بعد الحديث رقم ١٥٣٢.

ابن حجر، الإصابة — ترجمة حكيم بن حزام.

بعد إسلامه سأل حكيمٌ رسول الله ﷺ عن أعمال البرّ التي كان يعملها في الجاهليّة — من صدقةٍ وعتاقةٍ وصلة رحم —: أله فيها أجر؟ فقال: «**أسلمتَ على ما سلف من خير**» (صحيح البخاري ١٤٣٦). وكان قد أعتق في الجاهليّة مائة رقبة وحمل على مائة بعير، ثمّ فعل مثل ذلك في الإسلام (صحيح البخاري ٢٥٣٨).

وتعلّم حكيمٌ درسًا عظيمًا في **عزّة النفس**: سأل رسول الله ﷺ فأعطاه، ثمّ سأله فأعطاه، ثمّ قال: «**إنّ هذا المال خضرةٌ حلوة... واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى**». فأقسم حكيمٌ ألّا يرزأ أحدًا بعد رسول الله ﷺ شيئًا — حتّى ردّ عطاء أبي بكر وعمر رضى الله عنهما (صحيح البخاري ١٤٧٢).

والعبرة: **المعروف لا يضيع**. فقد كانت أخلاق حكيمٍ الكريمة في الجاهليّة جسرًا أوصله إلى الإسلام، والإسلام أتمّها. وكم حولنا من أخيارٍ ينتظرون «ليلة مرّ الظهران» لتنفتح قلوبهم!

كتيبةً بعد كتيبة

قبل التحرّك إلى مكّة أمر رسول الله ﷺ العبّاسَ أن يحبس أبا سفيان عند **مضيق الوادي** حيث تزدحم الخيل، ليرى قوّة جيش الإسلام. فمرّت القبائل كتيبةً بعد كتيبة: **غفار، وجهينة، وسعد بن هُذَيم، وسُلَيم** – وأبو سفيان يقول كلّما مرّت: «ما لي ولغفار؟».

ولهذه الكلمة معنًى عميق: فهذه القبائل **لم تكن بينها وبين قريشٍ** صلةٌ ولا حرب، وها هي جميعًا تأتي تحت رايةٍ واحدة – راية **لا إله إلّا الله**. لقد جمع الإسلام قبائل كانت متفرّقة.

الكتيبة	التفاصيل
غفار	قوم أبي ذرّ الغفاريّ
جهينة	قبيلةٌ على الساحل غربيّ المدينة
سعد بن هُذَيم	من قضاعة في الشمال
سُلَيم	قبيلةٌ كانت تعادي الإسلام من قبل
الأنصار	بقيادة سعد بن عبادة
كتيبة رسول الله ﷺ	أقلّها عددًا؛ والراية مع الزبير

ومن اللطيف أنّ كتيبة رسول الله ﷺ كانت **أقلّها**. فالقائد العظيم لا يحتاج إلى أكبر الكتائب حوله؛ قوّته في **الثقة** وطاعة الجيش كلّه.

«يومٌ يعظّم الله فيه الكعبة»

لمّا مرّت كتيبة الأنصار نادى قائدها **سعد بن عبادة** رضى الله عنه أبا سفيان: «**اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلّ الكعبة!**» وكانت كلمةً خرجت من حماسة بطلٍ تذكّر سنين من الأذى على أيدي قريش.

لكنّ رسول الله ﷺ صحّحها فورًا: «**كذب سعد، ولكن هذا يومٌ يعظّم الله فيه الكعبة، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة**». تلك هي رسالة فتح مكّة: لا انتقام، بل **إعادة الحرمة** لبيت الله — تطهيره من الأصنام وردّه إلى توحيد إبراهيم عليه السلام.

من كتب السيرة: «اليوم يوم المرحمة»

روت بعض كتب السيرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**اليوم يوم المرحمة**»، وأخذ الراية من سعد فدفعها إلى ابنه **قيس بن سعد**، لئلّا تخرج الراية من بيته ولا يجد سعدٌ في نفسه.

لفظ «يوم المرحمة» **ليس في صحيح البخاري**؛ وهو من روايات السيرة التي تُكلّم في إسنادها، وضعّفها بعض العلماء. واللفظ الصحيح: «يومٌ يعظّم الله فيه الكعبة». ومعناه مع ذلك موافقٌ لأحداث الفتح كلّها.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب فتح مكّة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن حجر، فتح الباري — شرح الحديث رقم ٤٢٨٠.

العبرة: صحّح رسول الله ﷺ الخطأ **بالحكمة** — فلم يُخرج سعدًا، ولم يغمط الأنصار حقّهم، لكنّه كان حازمًا في المبدأ. وأمر أن تُركز رايته **بالحَجُون** في أعلى مكّة. وغدًا تُفتح مكّة.

سعد بن عبادة: سيّد الأنصار

مَن **سعد بن عبادة** رضى الله عنه، حامل راية الأنصار الذي صحّح رسول الله ﷺ كلمته؟ لا تُتّخذ كلمته في مرّ الظهران مقياسًا لشخصه كلّه؛ فهو من أعظم رجال الأنصار.

من كتب السيرة: سيّد الخزرج

كان سعد بن عبادة **سيّد الخزرج**، وأحد النقباء الاثني عشر الذين بايعوا رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية. واشتهر **بالجود**؛ فيذكر أهل السير أنّ جفنته كانت لا تنقطع، وكان ينقلب بالعدد الكثير من أهل الصفّة يطعمهم.

وبعد وفاة رسول الله ﷺ انتقل إلى الشام وتوفّي بحَوران. وهذه التفاصيل **من رواية كتب السيرة**.

المرجع:

ابن حجر، الإصابة — ترجمة سعد بن عبادة.

روى ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّ أمّ سعدٍ توفّيت وهو غائبٌ عنها، فسأل رسول الله ﷺ: أينفعها شيءٌ إن تصدّقت به عنها؟ قال: نعم. فقال سعد: «**فإنّي أُشهدك أنّ حائطي المِخراف صدقةٌ عليها**» (صحيح البخاري ٢٧٥٦). بستانٌ كاملٌ تصدّق به عن أمٍّ رحلت — تلك روح سعد.

فينبغي أن تُفهم كلمة سعدٍ في مرّ الظهران في سياقها: حماسة بطلٍ أنصاريّ شهد آلام المسلمين على أيدي قريش عشرين سنة. فقد وجّه رسول الله ﷺ **تلك الحماسة الوجهةَ الصحيحة** ولم يُطفئها — وعلى ما في روايات السيرة بقيت الراية في بيته عن طريق ابنه قيس.

العبرة: **الكريم قد يخطئ في القول**، والتصحيح الصائب لا يُسقط كرامته. فنحن نزن الناس بحياتهم كلّها — كما وزن رسول الله ﷺ حاطبًا ببدره، وسعدًا بتضحياته.

مصادر قصّة الجزء الأوّل

رُويت قصّة فتح مكّة من طريق نوعين من المصادر، وفهم الفرق بينهما يعين على التمييز بين **المقطوع به والمرويّ**.

الحدث	المصدر والدرجة
كتاب حاطب وسورة الممتحنة	صحيح البخاري ٤٢٧٤
الخروج في رمضان بعشرة آلاف	صحيح البخاري ٤٢٧٦
الفطر بكُراع الغَميم	صحيح مسلم ١١١٤
النيران في مرّ الظهران؛ إسلام أبي سفيان	صحيح البخاري ٤٢٨٠
الهجوم عند الوتير	كتب السيرة (ابن إسحاق، الواقدي)
شعر عمرو بن سالم	كتب السيرة؛ في إسناده كلام
أبو سفيان في المدينة	كتب السيرة
«اليوم يوم المرحمة»	رواية سيرة؛ ضعّفها بعضهم

الإطار الأساسيّ للقصّة — نقض العهد، والكتمان، وكتاب حاطب، والمسير في رمضان، والنيران في مرّ الظهران، وإسلام أبي سفيان — **ثابتٌ بالأحاديث الصحيحة.** أمّا سائر التفاصيل فتُحيي القصّة، ونرويها بأمانةٍ على أنّها من روايات السيرة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

قبل الفتح وبعده

ليس فتح مكّة حدثًا تاريخيًّا فحسب، فقد جعله القرآن حدًّا فاصلًا في وزن تضحيات الناس. فمن الناس مَن ضحّى والإسلام ضعيفٌ وأهله قليل، ومنهم مَن ضحّى بعد أن ظهر الإسلام ودخل الناس فيه أفواجًا. وكلاهما على خير، لكنّ درجاتهم لا تستوي.

القرآن الكريم: الحديد ٥٧: ١٠

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾

المرجع: الحديد ٥٧: ١٠ — تفسير ابن كثير ٥٧: ١٠.

فائدة تفسيريّة: أيّ «فتح»؟

اختلف المفسّرون في المراد بـ«الفتح» في هذه الآية؛ فذكر ابن كثير أنّ الجمهور على أنّه فتح مكّة، وقال الشعبيّ وغيره: هو صلح الحديبية — الذي سمّاه الله «فتحًا مبينًا» في الفتح ٤٨: ١.

والقولان يؤدّيان معنًى واحدًا: التضحية في الشدّة أعلى قيمةً من التضحية في الرخاء. وهذا منقولٌ من كتب التفسير، لا من حديثٍ مرفوع.

«لا تسبّوا أصحابي»

حديث: مثل أُحُدٍ ذهبًا

عن أبي سعيد الخدريّ رضى الله عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوفٍ شيء، فسبّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا أحدًا من أصحابي، فإنّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه».

الدرجة: صحيح — صحيح مسلم ٢٥٤١؛ وأخرجه أيضًا صحيح البخاري ٣٦٧٣ دون ذكر قصّة خالد وعبد الرحمن.

ولهذا الحديث وقعٌ خاصّ إذا قُرئ مع فتح مكّة. فقد أسلم خالد بن الوليد قبل الفتح بأشهر (الحلقة ١٨)، أمّا عبد الرحمن بن عوف فمن الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا. وخالدٌ صحابيٌّ كريم و«سيفٌ من سيوف الله» (الحلقة ١٩) — لكنّ تضحيته بالقياس إلى الجيل الأوّل جاءت بعد أن قوي الإسلام. فذكّره رسول الله ﷺ بأنّ ثمّة درجاتٍ لا تُدرك بالمال.

وهذا يفسّر أيضًا لماذا أكرم رسول الله ﷺ أمثال حاطب بن أبي بلتعة مع خطئه (الأبواب ١٢-١٥)؛ فحاطبٌ ممّن أنفق «من قبل الفتح» — شهد بدرًا والمسلمون نحو ثلاثمائة رجل.

مَن أسلموا عام الفتح

أسلم كثيرٌ من سادات قريشٍ عام الفتح أو بُعيده — أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وأبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أميّة، وكثيرون غيرهم في الجزء الثاني. وقد استُقبلوا بالترحاب، بل أُعطوا منزلة؛ فالإسلام لا يغلق بابه دون مَن جاء متأخّرًا. غير أنّ آية الحديد تعلّمنا تقدير الجيل الأوّل — المهاجرين والأنصار — الذين حملوا الإسلام وهو غريب.

العبرة

لا تنتظر حتّى يصير الخير سهلًا مشهورًا لتشارك فيه. فالتضحية في وقت الشدّة — كالتبرّع حين لا تكفي أموال المسجد، ونصرة الحقّ قبل أن يقبله الناس — أعظم قيمةً عند الله. ومَن جاء بعدُ فليحفظ قدر مَن سبق.

أعلام الجزء الأوّل

تشترك في قصّة الجزء الأوّل أعلامٌ كثيرة من قبائل شتّى. ويلخّص الجدول الآتي مَن هم، وصلتهم برسول الله ﷺ، ومصادر أخبارهم. وقد رُوجعت صلات القرابة بعناية لأنّها كثيرًا ما يُخطأ فيها.

العَلَم	القبيلة / الصلة	دوره في الجزء الأوّل	المصدر
أبو سفيان بن حرب	قريش، بنو عبد شمس (أميّة)؛ والد أمّ حبيبة	قدم المدينة ليجدّد العهد؛ أُخذ في مرّ الظهران فأسلم	صحيح البخاري ٧، ٤٢٨٠؛ كتب السيرة
أمّ حبيبة (رملة بنت أبي سفيان)	ابنة أبي سفيان؛ أمّ المؤمنين	طوت فراش رسول الله ﷺ عن أبيها	سنن أبي داود ٢١٠٧؛ كتب السيرة
عمرو بن سالم الخزاعيّ	خزاعة (بنو كعب)	قدم المدينة بشعر الاستغاثة بعد الهجوم عند الوتير	كتب السيرة
بُدَيل بن ورقاء	خُزاعة	شكا إلى رسول الله ﷺ؛ ثمّ خرج مع أبي سفيان في مرّ الظهران	صحيح البخاري ٢٧٣١، ٤٢٨٠
نوفل بن معاوية الدِّيليّ	بنو الدِّيل، من بني بكر بن عبد مناة (كنانة)	قاد هجوم بني بكر على خزاعة عند الوتير	كتب السيرة
حاطب بن أبي بلتعة	من لَخْم؛ حليف بني أسد بن عبد العُزّى (قريش)	كتب إلى قريش؛ عُفي عنه لأنّه بدريّ	صحيح البخاري ٣٠٠٧، ٤٢٧٤
عليّ بن أبي طالب	بنو هاشم؛ ابن عمّ رسول الله ﷺ	بُعث لانتزاع كتاب حاطب بروضة خاخ	صحيح البخاري ٣٠٠٧
الزبير بن العوّام	بنو أسد بن عبد العُزّى؛ ابن صفيّة بنت عبد المطّلب — ابن عمّة رسول الله ﷺ	مع عليّ في انتزاع الكتاب؛ حامل راية كتيبة رسول الله ﷺ	صحيح البخاري ٣٠٠٧، ٤٢٨٠

العَلَم	القبيلة / الصلة	دوره في الجزء الأوّل	المصدر
المقداد بن عمرو (ابن الأسود)	من بَهْراء (قضاعة)؛ حليف بني زُهرة	مع عليّ والزبير إلى روضة خاخ	صحيح البخاري ٣٠٠٧
العبّاس بن عبد المطّلب	بنو هاشم؛ عمّ رسول الله ﷺ	هاجر فلقيه بالجحفة؛ جاءه بأبي سفيان	صحيح مسلم ٩٨٣؛ صحيح البخاري ٤٢٨٠؛ كتب السيرة
أبو سفيان بن الحارث	بنو هاشم؛ ابن الحارث بن عبد المطّلب — ابن عمّ رسول الله ﷺ، وأخوه من الرضاعة أيضًا (أرضعته حليمة)	جاء تائبًا عند نِيق العُقاب	كتب السيرة؛ صحيح مسلم ١٧٧٥ (في حنين)
عبد الله بن أبي أميّة	بنو مخزوم؛ ابن عاتكة بنت عبد المطّلب — ابن عمّة رسول الله ﷺ، وأخو أمّ سلمة لأبيها	جاء تائبًا مع أبي سفيان بن الحارث	كتب السيرة
حكيم بن حِزام	بنو أسد بن عبد العُزّى؛ ابن أخي خديجة رضى الله عنها (ابن أخيها حزام)	خرج مع أبي سفيان وبُدَيل في مرّ الظهران	صحيح البخاري ٤٢٨٠، ١٤٣٦
سعد بن عبادة	الخزرج (بنو ساعدة)؛ سيّد الخزرج	حامل راية الأنصار؛ صُحّحت كلمته «يوم الملحمة»	صحيح البخاري ٤٢٨٠
أبو رُهم كلثوم بن حصين الغفاريّ	غفار	استُخلف على المدينة حين خرج رسول الله ﷺ إلى مكّة	كتب السيرة (ابن إسحاق)

من كتب السيرة: المرأة حاملة الكتاب

لم تُسمَّ المرأة التي حملت كتاب حاطب في الحديث الصحيح. وذكر ابن إسحاق أنّ اسمها سارة، مولاةً لبعض بني عبد المطّلب، وأنّها قدمت المدينة تطلب المعونة. وذكر الواقديّ اسمًا آخر. والاسم والتفاصيل من رواية كتب السيرة، ولا تمسّ جوهر القصّة الصحيحة.

المرجع: ابن هشام، السيرة النبوية — باب فتح مكّة؛ ابن حجر، فتح الباري، شرح الحديث رقم ٣٠٠٧.

العبرة

جاءت أعلام الجزء الأوّل من خلفيّاتٍ شتّى: حلفاء وأعداء وأقارب وأصحاب. منهم مَن أخطأ، ومنهم مَن تأخّر، ومنهم مَن آذى من قبل. وقد عامل رسول الله ﷺ كلًّا بحسب حاله — حازمًا مع الغدر، عادلًا مع الخطأ، عفوًّا عن التائب.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

المواضع من المدينة إلى مرّ الظهران

ذكر الباب ١٦ مسير الجيش ذي العشرة آلاف من المدينة إلى مكّة بإيجاز. ويجمع هذا الباب المواضع الواردة في قصّة الجزء الأوّل — من الوتير جنوبيّ مكّة إلى الحَجُون على طرف البلد — ليتصوّر القارئ ذلك المسير.

حديث: صام حتّى بلغ الكَدِيد

عن ابن عبّاس رضى الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى مكّة عام الفتح في رمضان، فصام حتّى بلغ الكَدِيد — الماء الذي بين قُدَيد وعُسفان — فأفطر، فلم يزل مفطرًا حتّى انسلخ الشهر.

الدرجة: صحيح — صحيح البخاري ٤٢٧٥؛ وانظر أيضًا صحيح البخاري ١٩٤٤.

المكان	الحدث	اليوم (تقريبًا)	المصدر
الوَتير	ماءٌ لخزاعة بيّتوا عنده من بني بكر	في جنوبيّ مكّة؛ لا يُعرف موضعه بدقّة	كتب السيرة؛ ياقوت، معجم البلدان
روضة خاخ	انتُزع فيها كتاب حاطب من المرأة	بين مكّة والمدينة، قريبًا من المدينة	صحيح البخاري ٣٠٠٧؛ فتح الباري
الجحفة	لقي فيها العبّاسُ رسولَ الله ﷺ مهاجرًا	ميقات أهل الشام ومصر، قرب رابغ	كتب السيرة؛ سعود يبيديا، «ميقات الجحفة»
نِيق العُقاب	جاء فيه أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أميّة تائبَين	ثنيّةٌ بين مكّة والمدينة؛ لا يُعرف موضعها بدقّة	كتب السيرة
قُدَيد	مرّ بها الجيش في مسيره	بين رابغ وخُلَيص	كتب السيرة

المكان	الحدث	اليوم (تقريبًا)	المصدر
الكَدِيد	فيه أفطر رسول الله ﷺ في رمضان	ماءٌ بين قُدَيد وعُسفان	صحيح البخاري ٤٢٧٥، ١٩٤٤
كُراع الغَميم	الفطر، وتسمية مَن استمرّ صائمًا «العصاة»	وادٍ قرب عُسفان	صحيح مسلم ١١١٤
عُسفان	شرب رسول الله ﷺ نهارًا ليراه الناس	بلدةٌ شمال مكّة على الطريق القديم إلى المدينة	صحيح البخاري ٤٢٧٩
مرّ الظهران	عشرة آلاف نار؛ وإسلام أبي سفيان	وادي فاطمة ومنطقة الجموم، شمال غربيّ مكّة	صحيح البخاري ٤٢٨٠
الحَجُون	موضعٌ رُكزت فيه راية رسول الله ﷺ يوم الفتح	أعلى مكّة (شمالها)، قرب مقبرة المعلاة	صحيح البخاري ٤٢٨٠

فائدة جغرافيّة

المواضع المذكورة في الأحاديث الصحيحة هي: روضة خاخ، والكَدِيد، وكُراع الغَميم، وعُسفان، ومرّ الظهران، والحَجُون. أمّا غيرها فمذكورٌ في كتب السيرة. ومطابقتها بأسماء اليوم تقريبيّةٌ بحسب كتب البلدان القديمة كمعجم البلدان لياقوت الحمويّ، وقد تختلف المسافات باختلاف الطرق.

العبرة

لكلّ موضعٍ في هذا الطريق درس: في روضة خاخ حُفظ السرّ، وفي الجحفة ونِيق العُقاب فُتح باب التوبة، وفي الكَدِيد وعُسفان يُسّر الدين، وفي مرّ الظهران لانت القلوب القاسية. فالمسير إلى مكّة كان مسير قلوبٍ قبل أن يكون مسير جيش.

أحكامٌ من الجزء الأوّل

ليست أحداث ما قبل الفتح قصصًا فحسب، بل هي أيضًا مصدرٌ للأحكام. وقد وضع الإمام البخاري نفسه حديث كتاب حاطب في «باب الجاسوس» من كتاب الجهاد، دلالةً على أنّ العلماء استنبطوا منه الأحكام.

حديث: باب الجاسوس

عن عليٍّ رضى الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينةً ومعها كتاب فخذوه منها»... فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين من أهل مكّة يخبرهم ببعض أمر رسول الله. فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنّه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعلّ الله أن يكون قد اطّلع على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

الدرجة: صحيح — صحيح البخاري ٣٠٠٧، كتاب الجهاد، باب الجاسوس؛ وانظر أيضًا صحيح البخاري ٤٢٧٤ وصحيح مسلم ٢٤٩٤.

المسألة	الحكم / التوجيه	الدليل
نقض الطرف الآخر للعهد	ينتقض العهد بغدرهم؛ ولا يبقى المغدور به ملزَمًا به	التوبة ٩: ١٢–١٣؛ كتب السيرة
خوف الخيانة قبل وقوعها	يجب نبذ العهد علانيةً، لا الإغارة على غِرّة	الأنفال ٨: ٥٨؛ صحيح البخاري ٣١٨٨
كتمان خطّة الحرب	جائز بل مطلوب؛ والخدعة في الحرب مباحة، لكن لا غدر بالعهد	صحيح البخاري ٢٩٤٧، ٣٠٣٠
تجسّس المسلم لصالح العدوّ	حرامٌ وكبيرة؛ وعقوبته موكولةٌ إلى وليّ الأمر	صحيح البخاري ٣٠٠٧؛ الممتحنة ٦٠: ١

المسألة	الحكم / التوجيه	الدليل
التثبّت قبل العقوبة	يجب سماع بيان المتّهم	«يا حاطب، ما هذا؟» — صحيح البخاري ٤٢٧٤
تفتيش متاع المشتبه به	جائز عند الضرورة الأمنيّة، مع حفظ العورة والحرمة	صحيح البخاري ٣٠٠٧
الصوم في السفر	يجوز الصوم والفطر؛ والفطر أفضل إن شقّ أو للتقوّي على العدوّ	صحيح البخاري ٤٢٧٥؛ صحيح مسلم ١١١٤
قبول إسلام مَن عادى من قبل	يُقبل في الظاهر؛ وأمر القلوب إلى الله	صحيح البخاري ٤٢٨٠؛ الأنفال ٨: ٣٨

فائدة فقهيّة: عقوبة الجاسوس المسلم

اتّفق العلماء على أنّ التجسّس لصالح العدوّ حرام، واختلفوا في عقوبته. وعلى ما لخّصه ابن حجر في فتح الباري والنوويّ في شرح مسلم: ذهب الإمام الشافعيّ وكثيرٌ من العلماء إلى أنّ المسلم الجاسوس لا يُقتل، بل يُعزَّر بما يليق، وذهب بعض المالكيّة إلى أنّ للإمام أن يقتله باجتهاده.

وتبيّن قصّة حاطب أنّ على الإمام أن ينظر في حال الفاعل: نيّته، وسابقة إحسانه، وأثر فعله. وهذا الملخّص منقولٌ من كتب الشروح، وتفصيله في كتب الفقه.

العبرة

يجمع الإسلام بين الحزم والعدل: فالغدر بالعهد يُجازى، لكنّ الإسلام نفسه لا يبدأ بالغدر. وسرّ الدولة يُحفظ، لكنّ المتّهم يُسمع. وفي العبادة يُيسّر هذا الدين على المجاهدين.

الخطّ الزمنيّ للجزء الأوّل

يرتّب هذا الجدول أحداث الجزء الأوّل بحسب وقوعها. وأكثر التواريخ الدقيقة من كتب السيرة، وبعضها مختلفٌ فيه بين المؤرّخين.

الوقت	الحدث	المصدر
ذو القعدة ٦هـ	صلح الحديبية؛ خزاعة تدخل في عقد رسول الله ﷺ، وبنو بكر في عقد قريش	صحيح البخاري ٢٧٣١؛ كتب السيرة
في مدّة الهدنة	أبو سفيان بين يدي هرقل: «فهل يغدر؟»	صحيح البخاري ٧
شعبان ٨ هـ	بنو بكر — بعونٍ من بعض قريش — يبيّتون خزاعة عند الوتير	كتب السيرة
بعد الهجوم	قدوم عمرو بن سالم وبُدَيل بن ورقاء إلى المدينة	كتب السيرة
بعد ذلك	أبو سفيان يقدم المدينة ليجدّد العهد، ويرجع صفر اليدين	كتب السيرة
أواخر شعبان – أوائل رمضان ٨ هـ	الجهاز في كتمان، والدعاء بألّا تبلغ الأخبار قريشًا	كتب السيرة؛ صحيح البخاري ٢٩٤٧
قبل السفر	انتزاع كتاب حاطب بروضة خاخ؛ ونزول سورة الممتحنة	صحيح البخاري ٣٠٠٧، ٤٢٧٤
١٠ رمضان ٨ هـ (عند ابن إسحاق)	خروج رسول الله ﷺ في عشرة آلاف	صحيح البخاري ٤٢٧٦؛ التاريخ: كتب السيرة
في الطريق	العبّاس يلقاه بالجحفة	كتب السيرة
في الطريق	أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أميّة يتوبان عند نِيق العُقاب	كتب السيرة
بالكَدِيد وكُراع الغَميم	رسول الله ﷺ يُفطر	صحيح البخاري ٤٢٧٥؛ صحيح مسلم ١١١٤

الوقت	الحدث	المصدر
ليلة مرّ الظهران	عشرة آلاف نار؛ أُخذ أبو سفيان وحكيم وبُدَيل؛ وأسلم أبو سفيان	صحيح البخاري ٤٢٨٠
الصباح التالي	الكتائب تمرّ بأبي سفيان كتيبةً بعد كتيبة؛ وتصحيح كلمة سعد بن عبادة	صحيح البخاري ٤٢٨٠
نحو ١٧–٢٠ رمضان ٨ هـ	الجيش يدخل مكّة (الحلقة ٢١)؛ والتاريخ الدقيق مختلفٌ فيه	صحيح البخاري ٤٢٨٠؛ كتب السيرة

العبرة

يُظهر هذا الخطّ الزمنيّ سرعة الأحداث بعد الغدر — نحو شهرٍ من الوتير إلى مكّة. لكنّ وراء تلك السرعة صبرَ عامين على الوفاء بالعهد. فالنصر يأتي في الوقت الذي قدّره الله، لا في الوقت الذي نريده.

أسئلة شائعة عن فتح مكّة (الجزء الأوّل)

١. ما معنى «الفتح»؟

«الفتح» هو الافتتاح. وسمّى علماء السيرة هذا الحدث فتح مكّة لأنّ البلد فُتح بلا سفكٍ يُذكر للدماء، وانفتحت أبوابه للإسلام. وسمّته سورة النصر «الفتح» (النصر ١١٠: ١؛ الباب ٣١).

٢. لماذا عُدّ صلح الحديبية منتقضًا؟

لأنّ بني بكر — حلفاء قريش — اعتدوا على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وأعانهم بعض سادة قريش بالسلاح والرجال؛ وهذا نقضٌ لشرط الصلح أن لا يتقاتل الطرفان وحلفاؤهما (البابان ٤–٥؛ كتب السيرة).

٣. هل أغار رسول الله ﷺ على غِرّة دون إنذار؟

الغدر جاء من قريش نفسها، وقد قدم أبو سفيان المدينة لعلمه بأنّ العهد نُقض (الباب ٧). والنهي عن الإغارة على غرّة في الأنفال ٨: ٥٨ إنّما هو عند مجرّد خوف الخيانة؛ أمّا هنا فقد وقعت الخيانة فعلًا (البابان ٩ و٣٤).

٤. لماذا لم يُعاقَب حاطب؟

لأنّه صدق في بيان نيّته، ولم يرتدّ، وهو من أهل بدر. فقبل رسول الله ﷺ عذره ونهى عمر عن قتله (صحيح البخاري ٣٠٠٧، ٤٢٧٤؛ الأبواب ١٢–١٥).

٥. ما حكم المسلم الذي يُفشي السرّ للعدوّ؟

حرامٌ ومن الكبائر. وتفصيل عقوبته في كتب الفقه، وأمرها إلى وليّ الأمر (الباب ٣٤).

٦. كم كان عدد جيش المسلمين؟

عشرة آلاف، كما في صحيح البخاري ٤٢٧٦. وذكرت بعض كتب السيرة اثني عشر ألفًا بإضافة مَن لحق بعدُ — وهو العدد الذي يكثر ذكره في غزوة حنين.

٧. لماذا أفطر رسول الله ﷺ في السفر؟

ليقوّي الجيش ويُظهر للناس يسر الدين؛ فشرب على الملأ ليُقتدى به (صحيح البخاري ٤٢٧٥، ٤٢٧٩؛ صحيح مسلم ١١١٤؛ البابان ١٧–١٨).

٨. متى خرج الجيش ومتى دخل مكّة؟

ذكر ابن إسحاق أنّ رسول الله ﷺ خرج لعشرٍ مضين من رمضان سنة ثمان. واختُلف في تاريخ دخول مكّة — بين السابع عشر والعشرين من رمضان على اختلاف الروايات. والمقطوع به أنّه كان في رمضان (صحيح البخاري ٤٢٧٦).

٩. هل كان إسلام أبي سفيان صادقًا؟

نقبل الظاهر ونكل السرائر إلى الله، كما قبل رسول الله ﷺ شهادته (صحيح البخاري ٤٢٨٠). وتذكر كتب السيرة أنّه شهد بعدُ حنينًا والطائف، وذهبت إحدى عينيه يوم الطائف. ويحترمه علماء أهل السنّة صحابيًّا.

١٠. مَن استُخلف على المدينة حين خرج رسول الله ﷺ؟

ذكر ابن إسحاق أبا رُهم كلثوم بن حصين الغفاريّ، وفي بعض الروايات ابن أمّ مكتوم. وهذه معلومةٌ من كتب السيرة (الباب ٣٢).

١١. مَن المراد بـ«من قبل الفتح» في الحديد ٥٧: ١٠؟

الذين بذلوا المال والنفس قبل الفتح — قبل فتح مكّة عند جمهور المفسّرين، وقبل الحديبية عند بعضهم. وهم أعلى درجة، وإن وُعد الجميع بالحسنى (الباب ٣١).

١٢. ماذا يروي الجزء الثاني؟

تروي الحلقة ٢١ يوم الفتح نفسه: دخول رسول الله ﷺ مطأطئ الرأس، وأبواب الأمان، وتحطيم الأصنام حول الكعبة، ومفتاح الكعبة، وأذان بلال، وقوله «لا تثريب عليكم»، وبيعة النساء، وتسعة عشر يومًا أقامها بمكّة.

العبرة

تذكّرنا هذه الأسئلة بالتمييز بين القرآن والحديث الصحيح وروايات كتب السيرة وأقوال العلماء. فإطار قصّة الجزء الأوّل ثابتٌ بالأحاديث الصحيحة، أمّا تفاصيلها فنرويها بأمانةٍ بحسب درجتها.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

الدروس والخاتمة

الجزء الأوّل من فتح مكّة قصّةُ **إعداد** — إعدادٍ دقيقٍ مكتوم مليءٍ بالرحمة. فالنصر العظيم لا يأتي فجأة، بل يُبنى على صبر عامين، والوفاء بالعهد، وحكمة القائد.

العبرة	من الجزء الأوّل
الوفاء بالوعد	الإسلام لا يبدأ بالغدر
الوفاء للحليف	استغاثة خزاعة تُجاب
العقيدة فوق الدم	أمّ حبيبة تطوي الفراش
التدبير والكتمان	«الحرب خدعة»
العدل قبل العقوبة	«يا حاطب، ما هذا؟»
الحسنات تغمر الزلّات	أهل بدر مغفورٌ لهم
اليسر في الدين	الفطر في السفر
العفو عن العدوّ	«لا تثريب عليكم اليوم»

وكلّ ذلك تمهيدٌ لوعد الله في سورة النصر: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ (النصر ١١٠: ١) — تفسير ابن كثير ١١٠: ١.

فتح مكّة في حياتنا

في كلٍّ منّا «مكّة» — قلبٌ يحتاج أن يُطهَّر من أصنام الدنيا. ويعلّمنا الجزء الأوّل أنّ ذلك الفتح يحتاج إلى **إعدادٍ وصبرٍ ورحمة**: الوفاء بالعهد، والعفو عمّن أساء، وتقديم طاعة الله.

إن شاء الله تستمرّ سلسلة **السيرة النبوية** بـ**الحلقة ٢١ — فتح مكّة (الجزء الثاني)**: دخول رسول الله ﷺ مكّة مطأطئ الرأس، وإعلان الأمان، وتحطيم ثلاثمائةٍ وستّين صنمًا حول الكعبة، وأذان بلالٍ فوق الكعبة، والعفو العظيم عن أهل مكّة. والله أعلم.

المراجع

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (البقرة ٢: ١٨٥؛ الأنفال ٨: ٥٨؛ التوبة ٩: ١٢–١٣؛ يوسف ١٢: ٩١–٩٢؛ النحل ١٦: ٩١؛ الممتحنة ٦٠: ١، ٦٠: ٨؛ النصر ١١٠). https://tafsir.app/ibn-katheer/60/1

الحديث الشريف

صحيح البخاري ٢٧٣١، ٢٩٤٧، ٣٠٣٠، ٣١٨٨، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٢٧٦، ٤٢٧٩، ٤٢٨٠.
https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ٩٨٣، ١١١٤، ١٧٧٥، ١٧٨٠، ٢٤٩٥. https://sunnah.com/muslim

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب فتح مكّة.

الواقديّ، المغازي؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى؛ البيهقيّ، دلائل النبوّة.

ابن كثير، البداية والنهاية — فتح مكّة؛ ابن القيّم، زاد المعاد.

ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري شرح صحيح البخاري — كتاب المغازي، باب غزوة الفتح؛ والإصابة في تمييز الصحابة. النوويّ، شرح صحيح مسلم — كتاب الصيام.

صفيّ الرحمن المباركفوريّ، الرحيق المختوم — باب فتح مكّة.

التاريخ العامّ

ويكيبيديا، «فتح مكة». https://en.wikipedia.org/wiki/Conquest_of_Mecca

ويكيبيديا، «Treaty of Hudaybiyyah». https://en.wikipedia.org/wiki/Treaty_of_Hudaybiyyah

ويكيبيديا، «حاطب بن أبي بلتعة». https://en.wikipedia.org/wiki/Hatib_ibn_Abi_Balta%27a

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

ويكيبيديا، «أبو سفيان بن حرب». https://en.wikipedia.org/wiki/Abu_Sufyan_ibn_Harb

ويكيبيديا، «العبّاس بن عبد المطّلب». https://en.wikipedia.org/wiki/Al-Abbas_ibn_Abd_al-Muttalib

ويكيبيديا، «بنو خزاعة». https://en.wikipedia.org/wiki/Banu_Khuza%27a

ويكيبيديا، «سورة الممتحنة». https://en.wikipedia.org/wiki/Al-Mumtahanah

أحاديث ومصادر إضافية

الحديد ٥٧: ١٠ (قبل الفتح وبعده). https://quran.com/57:10

صحيح مسلم ٢٥٤١ (خالد وعبد الرحمن بن عوف؛ «لا تسبّوا أصحابي»). https://sunnah.com/muslim:2541a

صحيح البخاري ٣٦٧٣ («لا تسبّوا أصحابي»). https://sunnah.com/bukhari:3673

صحيح البخاري ٤٢٧٥ (صام حتّى بلغ الكَدِيد). https://sunnah.com/bukhari:4275

صحيح البخاري ١٩٤٤ (الكَدِيد بين قُدَيد وعُسفان). https://sunnah.com/bukhari:1944

صحيح البخاري ٣٠٠٧ (باب الجاسوس — كتاب حاطب). https://sunnah.com/bukhari:3007

صحيح مسلم ٢٤٩٤ (قصّة حاطب). https://sunnah.com/muslim:2494

سعوديبيديا، «ميقات الجحفة». https://saudipedia.com/en/article/3247/religion/miqat-al-juhfah

صحيح البخاري ٢٩٤٧ (التورية عن وجهة الغزو). https://sunnah.com/bukhari:2947

صحيح البخاري ٤٢٨٠ (مرّ الظهران). https://sunnah.com/bukhari:4280

الدعم والتبرّع

يُنشر هذا الكتاب **مجّانًا بالكامل** للأمّة الإسلامية، **ولا يجوز بيعه أبدًا.** والتبرّعات مرحّبٌ بها للمساعدة في تكاليف البحث، واستضافة الموقع quranscience.my، ونشر مزيدٍ من الكتب — لكنّها **ليست واجبة.** نسأل الله أن يتقبّل كلّ تبرّعٍ صدقةً جارية.

سورة البقرة (٢): ٢٦١

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١

المصدر: quran.com/2:261

سورة سبأ (٣٤): ٣٩

قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩

المصدر: quran.com/34:39

حديث — صحيح مسلم، رقم ٢٥٨٨

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ، وَابْنُ، حُجْرٍ قَالُوا حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، - وَهُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ - عَنِ الْعَلاَءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ ».

السند: رواه الإمام مسلم: عن يحيى بن أيّوب، وقتيبة بن سعيد وعلي بن حُجر، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عبد الرحمن بن يعقوب، عن أبي هريرة رضى الله عنه .

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، حديث رقم ٢٥٨٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:2588

حديث – صحيح مسلم، رقم ١٦٣١

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ، - يَعْنِي ابْنَ سَعِيدٍ - وَابْنُ حُجْرٍ قَالُوا حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، - هُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ - عَنِ الْعَلاَءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ».

السند: رواه الإمام مسلم: عن يحيى بن أيّوب، وقتيبة بن سعيد وعلي بن حُجر، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عبد الرحمن بن يعقوب، عن أبي هريرة رضى الله عنه .

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الوصيّة، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم ١٦٣١.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1631

جزاكم الله خيرًا كثيرًا



امسح رمز QR أعلاه (DuitNow، ماليزيا) للتبرّع.

تبرع

للمتبرّعين من خارج ماليزيا: انقر زرّ «تبرّع» أو زُر paypal.me/quranscience